اليمامتان(١)

جاء في تاريخ الواقِديّ : « أنَّ المقَوقِسَ عظيمَ القِبْطِ في مِصر ، زوَّج بنتَه أرمانوسةَ من قسطنطين بن هِرَقل ، وجهَّزها بأموالها ، وحَشَمِها لتسير إليه ، حتَّى يَبنِيَ عليها في مدينة قيْسارِيَّةَ ، فخرجت إلى بُلْبيس(٢) ، وأقامت بها . وجاء عَمرُو بن العاص إلى بُلبيس ، فحاصرها حِصاراً شديداً ، وقاتلَ مَن بها ، وقتَل منهم زُهاءَ(٣) ألف فارس ، وانهزم مَن بقي إلى المقوقس . وأُخِذت أرمانوسةُ ، وجميع مالَها ، وأُخِذ كلُّ ما كان للقبط في بلبيس . فأحبَّ عمرٌو ملاطفةَ المقوقس ، فسيَّر إليه ابنتَه مُكرَّمةً في جميع مالهَا ، مع قَيْس بنِ أبي العاص السَّهميِّ ؛ فسُرَّ بقدومها » .

* * *

هـذا ما أثبتَه الواقديُّ في روايته ، ولم يكن مَعْنِيّاً إلا بأخبار المغازي ، والفتوح ، فكان يقتصر عليها في الرِّواية ، أمَّا ما أغفله ؛ فهو ما نقُصُّه نحن :

كانت لأرمانوسةَ وصيفةٌ مُوَلَّدةٌ ، تسمَّى مارِية ، ذاتُ جمالٍ يونانيٍّ أتمَّته مصرُ ، ومسحتْه بسحرها ، فزاد جمالُها على أن يكون مصرياً ، ونقصَ الجمالُ اليونانيُّ أن يكونَه ؛ فهو أجملُ منهما ، ولمصرَ طبيعةٌ خاصَّة في الحسن ، فهي قد تهمِل شيئاً في جمال نسائها ، أو تُشَعِّث(٤) منه . وقد لا توفِّيه جهدَ محاسنها الرَّائعة ؛ ولـكن متى نشأ فيها جمالٌ ينزعُ إلى أصلٍ أجنبيٍّ ؛ أفرغت فيه سحرَها إفراغاً ، وأبتْ إلا أن تكون الغالبةَ عليه ، وجعلته آيتَها في المقابلةِ بينه في طابَعه المصريِّ ، وبين أصله في طبيعة أرضه كائنةً ما كانت ؛ تغارُ على سحرها أن يكون

(١) انظر حديثَ القصة في أدب الرافعي من كتابنا « حياة الرافعي » ثم انظر الحديث من قصة « اليمامتان » منه أيضاً . (س) .

(٢) « قيسارية » : بلدة بفلسطين . و« بلبيس » : هي المدينة المعروفة بمديرية الشرقية بمصر . (ع) .

(٣) « زهاء » : مقدار .

(٤) « تشعث » : تفرَّق .

إلا الأعلى !

وكانت مارية هـذه مسيحيةً قويَّة الدِّينِ ، والعقل ، اتَّخذها المقوقسُ كنيسةً حيَّةً لابنته ، وهو كان والياً وبَطرِيركا[١] على مصر من قِبَلِ هِرَقل ، وكان من عجائب صُنع الله : أنَّ الفتحَ الإسلاميَّ جاء في عهده ، فجعل الله قلب هـذا الرَّجلِ مِفتاحَ القُفْل القبطيِّ ، فلم تكن أبوابُهم تدافِعِ إلا بمقدار ما تُدفَع : تُقاتل شيئاً من قتالٍ غيرِ كبير ، أمَّا الأبواب الرُّوميَّة ، فبقيت مستغْلقةً حصينةً لا تُذعِن إلا للتَّحطيم ، ووراءها نحو مئة ألف روميٍّ يقاتلون المعجزة الإسلاميَّة ؛ الَّتي جاءتهم من بلاد العرب أوَّلَ ما جاءت في أربعة آلاف رجلٍ ، ثم لم يزيدوا آخِرَ ما زادوا على اثني عشر ألفاً .

كان الرُّوم مئة ألف مُقاتلٍ بأسلحتهم ، ولم تكن المدافع معروفةً ، ولكنَّ رُوح الإسلام جعلت الجيش العربيَّ كأنَّه اثنا عشر ألف مِدْفعٍ بقنابلها ، لا يقاتلون بقوَّة الإنسان ، بل بقوَّة الرُّوح الدِّينيَّة ؛ الَّتي جعلها الإسلامُ مادَّةً منفجرةً تشبه الدِّينامِيت قبل أن يُعرَفَ الدِّيناميت !

ولمَّا نزل عمرٌو بجيشه على بُلبيس ، جَزِعت مارية جزعاً شديداً ؛ إذ كان الرُّوم قد أرجفوا : أنَّ هـؤلاء العربَ قومٌ جياعٌ ، ينْفضُهم الجذْب على البلاد نَفضَ الرِّمالِ على الأعين في الرِّيح العاصف ، وأنَّهم جَرَادٌ إنسانيٌّ لا يغزو إلا لِبطْنِه ؛ وأنَّهم غِلاظُ الأكباد ، كالإبل الَّتي يمتطونها ، وأنَّ النِّساء عندهم كالدَّوابِّ ، يُرْتَبَطْنَ على خَسْفٍ[٢] ، وأنَّهم لا عهدَ لهم ، ولا وفاء ، ثقُلت مطامعُهم ، وخَفَّت أمانتُهم ؛ وأنَّ قائدَهم عمرَو بنَ العاص كان جزاراً في الجاهليَّة ، فما تدعُه رُوح الجزَّار ، ولا طبيعتُه ، وقد جاء بأربعة آلاف سالخٍ من أخلاط النَّاس ، وشُذَّاذِهم[٣] ، لا أربعة آلاف مقاتلٍ من جيشٍ له نظام الجيش .

وتوهَّمتْ ماريةُ أوهامَها ، وكانت شاعرةً قد درست هي وأرمانوسةُ أدبَ يونانَ ، وفلسفتهم ، وكان لها خيالٌ مشبوبٌ متوقِّدٌ يُشعِرُها كلَّ عاطفةٍ أكبرَ ممَّا

---

(١) « بطريركاً » : هو رئيس رؤساء الأساقفة عند النصارى .

(٢) «خسف» : ذل .

(٣) « شذاذهم » : الشذاذ : الذين يكونون في القوم وليسوا منهم . والمتفرقون .

هي ، ويضاعف الأشياءَ في نفسها ، وينزِعُ إلى طبيعته المؤنَّثة ، فيبالغ في تهويل الحزن خاصَّة ، ويجعل من بعض الأشخاص وَقُوداً على الدَّم .

ومن ذلك ٱستُطِيرَ قلبُ مارية[1] ، وأفزعتها الوساوس ، فجعلت تَنْدُبُ[2] نفسها ، وصنعت في ذلك شعراً هـذه ترجمتُه :

جاءكِ أربعة آلافِ جزَّارٍ أيَّتها الشَّاةُ المسكينة !

ستذوق كلُّ شعرةٍ منكِ ألمَ الذَّبح قبل أن تُذبحي !

جاءكِ أربعة آلافِ خاطفٍ أيَّتها العذراءُ المسكينة !

ستموتين أربعةَ آلافِ مِيتةٍ قبل الموت !

قَوِّني يا إلـٰهي ! لأغمِدَ في صدري سِكيناً يردُّ عنِّي الجزارين !

يا إلـٰهي ! قوِّ هذه العذراءَ ، لتتزوَّج الموت قبل أن يتزوَّجها العربيُّ . . !

* * *

وذهبت تتلو شِعرَها على أرمانوسةَ في صوتٍ حزينٍ يتوجَّع ، فضحكتْ هذه ، وقالت : أنت واهمةٌ يا مارية ! أنسيت أنَّ أبي قد أهدَى إلى نبيِّهم بنتَ أنصِنا[3] ، فكانت عنده في مملكةٍ بعضُها السَّماءُ ، وبعضُها القلب ؟ لقد أخبرني أبي : أنَّه بَعَث بها ؛ لتكشفَ له عن حقيقةِ هذا الدِّين ، وحقيقةِ هذا النَّبيِّ ؛ وأنَّها أنفذتْ إليه دسِيساً[4] يُعْلمهُ : أنَّ هـؤلاء المسلمين هم العقلُ الجديدُ ؛ الذي سيضع في العالم تمييزَه بين الحقِّ والباطل ، وأنَّ نبيَّهم أطهرُ من السَّحابة في سمائها ، وأنَّهم جميعاً ينبعثون من حُدود دينهم وفضائله ، لا من حدود أنفسهم وشهوتِها ؛ وإذا سلُّوا السَّيف ؛ سلُّوه بقانون ، وإذا أغمدوه ؛ أغمدوه بقانون .

وقالت عن النِّساء : لأنْ تخاف المرأة على عفَّتها من أبيها ، أقربُ من أن تخافَ عليها من أصحاب هذا النَّبيِّ ، فإنَّهم جميعاً في واجبات القلب ، وواجبات العقل ،

---

(١) « استطير قلب مارية » : أي : ذُعِر وأُفْزِع .

(٢) «تندب»: ندب الميت : بكى عليه ، وعدَّد محاسنَه .

(٣) هي مارية القبطية التي أهداها المقوقس إلى النبي ﷺ ، وكانت من أنصنا بالوجه القبلي . (ع) .

(٤) « دسيساً » : هو مَنْ يُرسَلُ سراً ليأتي بالأخبار .

ويكاد الضَّميرُ الإسلاميُّ في الرَّجل منهم ، يكون حاملاً سلاحاً يَضرِبُ صاحبَه ؛ إذا همَّ بمخالفته .

وقال أبي : إنَّهم لا يُغيرون على الأمم ، ولا يحاربونها حرب الملِك ، وإنَّما تلك طبيعة الحركة للشَّريعةِ الجديدة : تتقدَّم في الدُّنيا حاملةً السِّلاح ، والأخلاق ، قويَّةً في ظاهرها وباطنها ، فمِن وراء أسلحتِهم أخلاقُهم ؛ وبذلك تكون أسلحتُهم نفسُها ذاتَ أخلاقٍ !

وقال أبي : إنَّ هذا الدِّينَ سيندفعُ بأخلاقِه في العالم اندفاعَ العُصارة الحيَّة في الشجرة الجرداء ، طبيعةٌ تعملُ في طبيعةٍ ، فليس يمضي غير بعيد حتى تَخْضرَّ الدُّنيا ، وترميَ ظِلالها ؛ وهو بذلك فوق السِّياسات ؛ التي تُشْبه في عملها الظَّاهر الملفَّقِ ما يُعدُّ كطلاءِ الشَّجرة الميتةِ الجرداء بلونٍ أخضر . . ! شَتَّانَ بين عملٍ وعملٍ ، وإن كان لونٌ يشبه لوناً .

فاستروَحَت[١] ماريةُ ، وأطمأنَّت باطمئنان أرمانوسة ، وقالت : فلا ضَيْرَ[٢] علينا إذا فتحوا البلد ، ولا يكون ما نستَضِرُّ به ؟.

قالت أرمانوسة : لا ضيرَ يا مارية ! ولا يكون إلا ما نُحبُّ لأنفسنا ، فالمسلمون ليسوا كهـؤلاء العُلوج[٣] من الرُّوم ، يفهمون متاعَ الدُّنيا بفكرة الحِرص عليه ، والحاجةِ إلى حلاله وحرامه ، فهم القُساةُ ، الغِلاظ ، المستكلِبون[٤] كالبهائم ، ولـكنَّهم يفهمون متاع الدُّنيا بفكرة الاستغناءِ عنه ، والتَّمييزِ بين حلاله وحرامه ، فهم الإنسانيُّون الرُّحماءُ المتعفِّفون .

قالت مارية : وأبيك يا أرمانوسةُ ! إنَّ هـذا لعجيبٌ ! فقد مات سقراط ، وأفلاطونُ ، وأرِسْطو ، وغيرُهم من الفلاسفة والحكماء ، وما استطاعوا أن يؤدِّبوا بحكمتهم ، وفلسفتهم إلا الكتبَ ؛ التي كتبوها . . ! فلم يُخرجوا للدُّنيا جماعةً تامَّة الإنسانيَّة ، فضلاً عن أمَّةٍ ، كما وصفتِ أنتِ من أمر المسلمين ، فكيف استطاع نبيُّهم أن يخرج هذه الأمَّة ، وهم يقولون : إنَّه كان أُمِّيّاً ؟ أفتسخَرُ الحقيقة من كِبار

(١) « استروحت » : سكنت واطمأنَّتْ .

(٢) « لاضير » : الضير هو الضُّر .

(٣) « العلوج » : جمع عِلْج ، وهو الشديد الجافي من الرجال .

(٤) « المستكلبون » : شديدو الحرص .

الفلاسفةِ ، والحكماء ، وأهلِ السِّياسة والتَّدبير ، فتدعهم يعملون عَبَثاً ، أو كالعبث . ثمَّ تستسلم للرَّجل الأُمِّيِّ ؛ الذي لم يكتُبْ ولم يقرأ ، ولم يدرُس ، ولم يتعلَّم ؟ .

قالت أرمانوسة : إنَّ العلماء بهيئة السَّماء ، وأجرامِها[١] ، وحساب أفلاكها ، ليسوا هم الذين يشقُّون الفجر ، ويُطلِعون الشَّمس ، وأنا أرى : أنَّه لا بدَّ من أمَّةٍ طبيعيَّةٍ بفطرتها ، ويكونُ عملها في الحياة إيجادَ الأفكار العلميَّة الصَّحيحة ؛ الَّتي يسير بها العالم ، وقد درستُ المسيحَ ، وعملَه ، وزمنه ، فكان طِيلة عمره يحاول أن يوجِد هـذه الأمَّة ، غير أنَّه أوجدها مُصَغرةً في نفسه وحواريِّيه[٢] ، وكان عملُه كالبدء في تحقيق الشَّيء العسير ، حسْبُه أن يثبت معنى الإمكان فيه .

وظهورُ الحقيقة من هذا الرَّجل الأمِّيِّ هو تنبيهُ الحقيقة إلى نفسها ، وبرهانُها القاطع : أنَّها بذلك في مظهرها الإلـهيِّ . والعجيب يا مارية ! أنَّ هذا النَّبيَّ قد خذله قومُه ، وناكَروه ، وأجمعوا على خِلافه ، فكان في ذلك كالمسيح ، غير أنَّ المسيح انتهى عند ذلك . أما هذا ؛ فقد ثبت ثبات الواقع حين يقع : لا يرتدُّ ، ولا يتغيَّر ؛ وهاجرَ من بلده ، فكان ذلك أولَ خُطا الحقيقة الَّتي أعلنت : أنَّها ستَمشي في الدنيا ، وقد أخذتْ من يومئذٍ تمشي[٣] .

ولو كانت حقيقة المسيح قد جاءت للدُّنيا كلِّها ؛ لهاجرتْ به كذلك ، فهـذا فرقٌ آخر بينهما .

والفرقُ الثَّالث : أنَّ المسيح لم يأت إلا بعبادةٍ واحدةٍ ، هي عبادة القلب ، أمَّا هذا الدِّينُ ؛ فعلمت من أبي : أنَّه ثلاثُ عباداتٍ يشُدُّ بعضها بعضاً : إحداها للأعضاء ، والثَّانية للقلب ، والثَّالثة للنَّفس ، فعبادة الأعضاء : طهارتُها ، واعتيادُها الضَّبط ، وعبادة القلبِ طهارته وحبُّه الخير ؛ وعبادة النَّفس طهارتُها ، وبذلُها في سبيل الإنسانيَّة . وعند أبي : أنهم بهـذه الأخيرة سيملكون الدُّنيا . فلن **تُقهرَ أُمَّةٌ عقيدتُها : أنَّ الموت أوسع الجانبين ، وأسعدُهما .**

---

(١) « أجرامها » : جمع جُرْم ، والأجرام السماوية : النجوم .

(٢) « حوارييه » : جمع الحواري ، وهو الناصر والخاصَّة من الأصحاب . والحواريون : أنصار النبي عيسى عليه السلام .

(٣) انظر المقالات النبوية في الجزء الثاني من الكتاب . (ع) .

قالت مارية : إنَّ هذا والله ! لسرٌّ إلـهيٌّ يدلُّ على نفسه ، فمن طبيعة الإنسان ألا تنبعثَ نفسُه غير مبالية الحياةَ ، والموتَ إلا في أحوالٍ قليلةٍ تكون طبيعة الإنسان فيها عمياء . كالغضب الأعمى ، والحب الأعمى ، والتكبُّرِ الأعمى . فإذا كانت هـذه الأمَّة الإسلاميَّة كما قلتِ منبعثةً هـذا الانبعاث ، ليس فيها إلا الشعورُ بذاتيَّتها العالية ، فما بعد ذلك دليلٌ على أنَّ هذا الدِّين هو شعور الإنسان بسموِّ ذاتيَّتِه ، وهذه هي نهاية النِّهاياتِ في الفلسفة ، والحكمة .

قالت أرمانوسة : وما بعد ذلك دليلٌ على أنَّك تتهيَّئين أن تكوني مسلمةً يا مارية . . . !

فاستَضحَكتا معاً ، وقالت مارية : إنَّما ألقيتِ كلاماً جارَيْتُكِ فيه بحسَبه ، فأنا وأنت فكرتان ، لا مسلمتان .

* * *

قال الرَّاوي : وانهزم الرُّومُ عن بُلبيس ، وارتدُّوا إلى المقوقس في مَنْف ، وكان وحْيُ أرمانوسةَ في ماريةَ مدَّة الحِصار ـ وهيَ نحو الشهر ـ كأنَّه فكرٌ سكَنَ فكراً ، وتمدَّد فيه ؛ فقد مرَّ ذلك الكلامُ بما في عقلها من حقائق النَّظر في الأدب ، والفلسفة ، فصنعَ ما يصنعُ المؤلِّفُ بكتابٍ ينقِّحه[1] ، وأنشأ لها أَخْيلةً تجادلها ، وتدفعها إلى التَّسليم بالصَّحيح ؛ لأنَّه صحيحٌ ، والمؤكَّدِ ، لأنَّه مؤكَّدٌ .

ومن طبيعة الكلام إذا أثَّر في النَّفس أن ينتظم في مثل الحقائق الصَّغيرة الَّتي تُلقىٰ للحفظ ؛ فكان كلامُ أرمانوسة في عقل مارية هكذا .

« المسيحُ بدءٌ وللبدء تكمِلةٌ ، ما من ذلك بدٌّ » .

« لا تكون خدمة الإنسانيَّة إلا بذاتٍ عاليةٍ لا تبالي غيرَ سموِّها » .

« الأمَّةُ التي تبذل كلَّ شيءٍ ، وتستمسكُ بالحياة جُبْناً ، وحرصاً ، لا تأخذ شيئاً ، والَّتي تبذل أرواحَها فقط تأخذ كلَّ شيءٍ » .

وجعلتْ هذه الحقائقُ الإسلاميَّة وأمثالها تُعرِّب هـذا العقلَ اليونانيَّ ، فلما أراد عمرو بن العاص توجيهَ أرمانوسة إلى أبيها ، وانتهى ذلك إلى مارية ، قالت لها :

---

(١) « ينقحه » : يُهذِّبه .

لا يَجمُلُ بمن كانت مثلكِ في شرفها ، وعقلها أن تكون كالأخيذة ، تتوجَّه حيث يُسارُ بها ، والرَّأي أن تبدئي هـذا القائدَ قبل أن يبدأكِ ، فأرسلي إليه ، فأعلميه : أنَّك راجعةٌ إلى أبيك ، وٱسأليه أن يُصْحِبَكِ بعض رجاله ، فتكوني الآمرةَ حتَّى في الأسْر ، وتصنعي صُنعَ بناتِ الملوك !.

قالت أرمانوسة : فلا أجد لذلك خيراً منك في لسانِك ، ودَهائك ، فاذهبي إليه من قِبَلي ، وسيصحُبك الرَّاهبُ شَطا ، وخُذي معك كوكبةً من فرساننا . . .

* * *

. . . قالت مارية وهي تقصُّ على سيدتها :

لقد أدَّيت إليه رسالتَكِ ، فقال : كيف ظنُّها بنا ؟ قلت : ظنُّها بفعل رجلٍ كريمٍ يأمره ٱثنان : كرمُه ، ودينه . فقال : أبلغيها : أنَّ نبيَّنا ﷺ قال : « ٱستوصُوا بالقبط خيراً ؛ فإنَّ لهم فيكم صِهراً ، وذمَّة »[1] . وأعلميها أنَّنا لسنا على غارةٍ نُغِيرُها ، بل على نفوسٍ نغيِّرُها .

قالت : فصِفيه لي يا مارية .

قالت : كان آتياً في جماعة من فرسانه على خيولهم العِراب ، كأنَّها شياطينُ تحملِ شياطينَ من جنسٍ آخر ، فلمَّا صار بحيث أتبيَّنُه ؛ أوْمأ إليه التُّرجُمانُ ـ وهو وَرْدانُ مولاه ـ فنظرت ، فإذا هو على فرسٍ كُمَيْت أحَمَّ[2] لم يخلُص للأسودِ ، ولا للأحمر ، طويلِ العنق ، مُشرِفٍ ، لهُ ذُؤابةٌ[3] أعلى ناصيته[4] كِطرَّةِ المرأة[5] ، ذيَّالٍ ، يتبختر بفارسه ، ويُحمْحمُ كأنَّه يريد أن يتكلَّم ، مطهَّم[6] .

فقطعت أرمانوسة عليها ، وقالت : ما سألتُكِ صفةَ جوادِه !

---

(١) ذكره صاحبُ كنز العمال (٣٤٠٢٢) وعزاه لابن عساكر .

(٢) « الكميت الأحم » : هو الأحمر الضارب للسواد ، لا يخلص لأحد اللونين ، فإذا كان أحمرَ خالصاً قيل فيه : كميت مُدمَّى (بتشديد الميم الثانية وفتحها) . (ع) .

(٣) « ذؤابة » : الذؤابة من الفرس : شعر في أعلى ناصيته .

(٤) « ناصيته » : الناصية : ما يبرز من الشعر في مقدم الرأس ، يكون حِذاء الجبهة .

(٥) « طرة المرأة » : ما تتزين به المرأة من الشعر الموفي على جبهتها بالقص والتصفيف .

(٦) « مطهم » : هو المتناهي الحُسْن .

قالت مارية : أمَّا سلاحُه . . .

قالت : ولا سِلاحِه ! صِفيه كيف رأيته هو ؟

قالت : رأيته قصيرَ القامة علامةَ قوَّةٍ وصلابةٍ ، وافرَ الهامة[١] ، علامةَ عقلٍ وإرادةٍ ، أدعج العينين[٢] .

فضحكت أرمانوسة ، وقالت : علامةَ ماذا ؟ .

. . . أبلج[٣] ، يُشرقُ وجهه ، كأنَّ فيه لألاء الذَّهب على الضَّوء ، أيِّداً[٤] اجتمعت فيه القوَّةُ ؛ حتَّى لتكادُ عيناه تأمران بنظرهما أمراً . . داهيةٌ كُتِبَ دَهاؤه على جبهته العريضة يجعل فيها معنًى يأخذ من يراه ، وكلَّما حاولتُ أن أتفرَّسَ في وجهه ؛ رأيت وجهَه لا يُفسِّرُه إلا تكرارُ النَّظر إليه . . .

وتضرَّجت[٥] وجنتاها ، فكان ذلك حديثاً بينها وبين عيني أرمانوسة . .

وقالت هذه : كذلك كلُّ لذَّةٍ لا يفسِّرها للنَّفس إلا تكرارُها . . !

فغضَّت مارية من طرْفِها[٦] ، وقالت : هو والله ما وصفتُ ، وإنِّي ما ملأتُ عيني منه ، وقد كدت أنكر : أنَّه إنسان ؛ لما اعتراني من هَيبته .

قالت أرمانوسة : من هيبته ، أم من عينيه الدَّعجاوَيْن . . ؟!

* * *

ورجعتْ بنتُ المقوقس إلى أبيها في صحبة قَيسٍ ، فلمَّا كانوا في الطَّريق ؛ وجَبَت الظُّهر ، فنزل قيسٌ يُصَلِّي بمن معه ، والفتاتان تنظران ؛ فلمَّا صاحوا : « الله أكبر . . . ! » ارتعش قلبُ مارية ، وسألت الرَّاهب شطا : ماذا يقولون ؟ قال : إنَّ هذه كلمة يدخلون بها صلاتَهم ، كأنَّما يخاطِبون بها الزَّمن : أنَّهم السَّاعةَ في وقت

---

(١) « الهامة » : الرأس .

(٢) « أدعج العينين » : دَعِجتِ العينُ : اتسعتْ ، واشتدَّ سوادُها وبياضُها .

(٣) « أبلج » : ظهر ، وأضاء ، وأسفر .

(٤) « أيداً » : آدَ الشيء : قوي ، واشتدَّ ، وصَلُب ، فهو أيِّد .

(٥) « تضرجت » : تضرَّج الخد : احمرَّ .

(٦) « طرفها » : عينها . قال تعالى : ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ﴾ [الصافات : ٤٨] .

ليس منه ، ولا من دنياهم ، وكأنَّهم يعلنون : أنهم بين يديْ من هو أكبرُ من الوجود ؛ فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ، ونزاع الوقت ، وشهواتِ الوقت ، فذلك هو دخولُهم في الصَّلاة ، كأنَّهم يَمْحُون الدُّنيا من النَّفس ساعةً ، أو بعضَ ساعة ، ومَحْوها من أنفسهم هو ارتفاعُهم بأنفسها عليهم ؛ أُنظري ، ألا تَريْنَ هذه الكلمة قد سَحَرَتهم سِحراً ، فهم لا يلتفتون في صلاتهم إلى شيء ؛ وقد شملتهم السَّكينة ، رَجَعوا غيرَ مَن كانوا ، وخشَعوا خُشوعَ أعظم الفلاسفةِ في تأمُّلِهم ؟(1) .

قالت مارية : ما أجملَ هذه الفطرةَ الفلسفية ! لقد تعِبَت الكتبُ لتجعل أهلَ الدُّنيا يستقرُّون ساعةً في سكينةِ الله عليهم ، فما أفلحتْ ، وجاءت الكنيسة فهوَّلت على المُصلِّين بالزَّخارف ، والصُّوَر ، والتماثيل ، والألوان ، لتُوحِيَ إلى نفوسهم ضرباً من الشعور بسكينة الجمال ، وتقديسِ المعنى الدِّينيِّ ، وهي بذلك تحتال في نقلهم من جوِّهم إلى جوِّها ؛ فكانت كساقي الخمر : إنْ لم يُعطك الخمرَ ؛ عَجَزَ عن إعطائك النَّشْوة ، ومن ذا الذي يستطيع أن يحملَ معه كنيسةً على جوادٍ ، أو حمارٍ ؟!

قالت أرمانوسة : نعم إنَّ الكنيسةَ كالحديقة ؛ هي حديقةٌ في مكانها ، قلَّما تُوحِي شيئاً إلا في موضعها ؛ فالكنيسة هي الجدرانُ الأربعة ؛ أمَّا هؤلاء فمعبدُهم بين جهات الأرض الأربع .

قال الرَّاهب شطا : ولكن هؤلاء المسلمين متى فُتِحَتْ عليهم الدُّنيا ، وافتتنوا بها ، وانغمسوا فيها ، فستكون هذه الصَّلاةُ بعينها ليس فيها صلاةٌ يومئذٍ .

قالت مارية : وهل تُفتَح عليهم الدُّنيا ؛ وهل لهم قُوَّادٌ كثيرون كعمرو . . ؟

قال : كيف لا تُفتح الدُّنيا على قومٍ لا يُحاربون الأمم ، بل يحاربون ما فيها من الظُّلم ، والكفر ، والرَّذيلة ، وهم خارجون من الصَّحراء بطبيعةٍ قويَّةٍ كطبيعة الموْج في المدِّ المرتفع : ليس في داخلها إلا أنفُسٌ مندفعةٌ إلى الخارج عنها ؛ ثُمَّ يقاتلون بهذه الطَّبيعة أُمماً ليس في الدَّاخل منها إلا النُّفوسُ المستعدَّة أن تهربَ إلى الدَّاخل . . . !

قالت مارية : والله ! لكأنَّنا ثلاثتَنا على دين عمرو . . .

---

(١) انظر مقالة (حقيقة المسلم) في الجزء الثاني . (ع) .

وانفتل[١] قيسٌ من الصَّلاة ، وأقبل يترجَّل ، فلما حاذَى ماريةَ كان عندها كأنَّما سافر ، ورجع ؛ وكانت ما تزال في أحلامها ، وكانت من الحلم في عالم أخَذَ يتلاشى إلا من عمرٍو ، وما يتَّصل بعمرٍو .

وفي هـذه الحياةِ أحوالٌ ثلاثٌ يغيب فيها الكونُ بحقائقه ، فيغيب عن السَّكران ، والمخبول ، والنَّائم ؛ وفيها حالةٌ رابعة يتلاشى فيها الكون إلا من حقيقةٍ واحدةٍ ، تتمثَّل في إنسانٍ محبوبٍ .

وقالت مارية للرَّاهب شطا : سَلْه : ما أربُهم من هـذه الحرب ؟ وهل في سياستهم أن يكون القائدُ ـ الذي يفتح بلداً ـ حاكماً على هذا البلد ؟

قال قيس : حَسْبُكِ[٢] أن تعلمي : أنَّ الرَّجل المسلم ليس إلا رجلاً عاملاً في تحقيق كلمةِ الله ، أما حظُّ نفسِه ، فهو في غيرِ هذه الدُّنيا .

وترجَمَ الرَّاهبُ كلامَه هكذا : أمَّا الفاتح ؛ فهو في الأكثر الحاكم المقيم ، وأما الحرب ؛ فهي عندنا الفكرة المصْلِحة تريد أن تضربَ في الأرض ، وتعمل ، وليس حظُّ النَّفس شيئاً يكون من الدُّنيا ؛ وبهـذا تكون النَّفسُ أكبر من غرائزها ، وتنقلب معها الدُّنيا برعونتها[٣] ، وحماقاتها ، وشَهواتها كالطِّفل بين يديْ رجلٍ ، فيهما قوَّة ضبطِه ، وتصريفِه . ولو كان في عقيدتنا أنَّ ثوابَ أعمالنا في الدنيا ، لانعكس الأمر .

قالت مارية : فسَلْه : كيفَ يصنع عمرٌو بهـذه القِلَّة ؛ التي معه ، والرُّومُ لا يُحصى عَدَدُهم ؟ فإذا أَخفق عمرٌو فَمَنْ عسى أن يستبدلوه منه ؛ وهل هو أكبر قوَّادِهم ، أو فيهم أكبر منه ؟

قال الرَّاوي : ولكن فرَسَ قيس تمطَّر[٤] ، وأسرع في لحاق الخيل على المقدِّمة ، كأنَّه يقول : لسْنا في هـذا . . .

---

(١) « انفتل » : انصرف .

(٢) « حسبكِ » : كفاكِ .

(٣) « رعوناتها » : الرعونة : الحُمْق . والأرعن : الأهوج في منطقه .

(٤) « تمطر » : جرى وأسرع . قال حسان بن ثابت :

تظلُّ جيادُنا مُتمطِّرات يُلطِّمُهنَّ بالخُمُرِ النساءُ

وفُتحتْ مصر صُلحاً بين عمرٍو والقِبط ، وولّى الرُّومُ مُصْعِدين إلى الإسكندرية ؛ وكانت مارية في ذلك تستقرئ أخبارَ الفاتح ، تطوف منها على أطلالٍ[١] من شخصٍ بعيدٍ ، وكان عمرو من نفسها كالمملكة الحصينة من فاتح لا يملكُ إلا حُبَّه أن يأخذَها ، وجعلتْ تذوي ، وشحَبَ[٢] لونها ، وبدأت تنظر النَّظرةَ التَّائهة ، وبان عليها أثر الرُّوح الظمأى ، وحاطها اليأسُ بجوِّه ، الذي يَحْرق الدَّم ، وبَدت مجروحةَ المعاني ، وإذ كان يتقاتل في نفسها الشُّعوران العدوَّان : شعورُ : أنَّها عاشقة ، وشعورُ : أنَّها يائسة !.

ورقَّت لها أرمانوسة ، وكانت هي أيضاً تتعلَّق فتًى رومانيّاً ، فسهرتا ليلةً تُديران الرأيَ في رسالةٍ تحملها مارية من قِبلها إلى عمرو ، كي تصلَ إليه ، فإذا وصلت بلَّغت بعينيها رسالةَ نفسها . . .

واستقرَّ الأمر أن تكون المسألة عن ماريةَ القبطيَّةِ ، وخبرها ، ونسلِها ، وما يتعلَّق بها : ممَّا يطول الإخبارُ به ؛ إذا كان السُّؤال من امرأةٍ عن امرأةٍ ، فلمَّا أصبَحتا ؛ وقع إليهما : أنَّ عمراً قد سار إلى الإسكندرية لقتال الرُّوم ، وشاع الخبر : أنَّه لمَّا أمر بفسْطاطه[٣] أن يُقوَّضَ[٤] أصابوا يمامةً قد باضت في أعلاه ، فأخبروه ، فقال : « قد تَحَرَّمتْ في جوارنا ، أَقِرُّوا الفسطاطَ حتَّى تطيرَ فِراخُها ! » فأقرُّوه !.

* * *

ولم يمضِ غير طويلٍ حتَّى قضت مارية نحبها[٥] ، وحَفِظت عنها أرمانوسة هذا الشِّعر ؛ الذي أسمته : نشيد اليمامة[٦] :

على فسطاطِ الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحْضن بيْضَها !

---

(١) « أطلال » : جمع طَلَل ، وهو ما بقي شاخصاً من آثار الديار ونحوها .

(٢) « شحب » : تغيَّر .

(٣) « فسطاطه » : بيت يُتَّخذ من الشَّعَر .

(٤) « يقوض » : يُهدَّم ، ويُنْقَض .

(٥) « قضت مارية نحبها » : أي : ماتت . والنحب : المدة والأَجَل .

(٦) « اليمامة » : اليمام : الحمام البري . واحدته : يمامة .

تركها الأمير تصنع الحياة ، وذهب هو يصنع الموت !

هي كأسعدِ امرأة تَرى ، وتلمس أحلامَها .

إنَّ سعادة المرأة أوَّلُها ، وآخِرها بعض حقائق صغيرةٍ كهذا البيض .

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها .

لو سُئِلت عن هـذا البيض ؛ لقالت : هذا كنْزي .

هي كأهنأ امرأةٍ ، مَلكت مِلكها من الحياة ، ولم تفتقِر .

هل أكلِّف الوجودَ شيئاً كثيراً ؛ إذا كلَّفْتُه رجُلاً واحداً أُحِبُّه .

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها .

الشَّمس ، والقمر ، والنُّجوم ، كلُّها أصغر في عينها من هذا البيضِ .

هي كأرقِّ امرأةٍ ؛ عرفت الرِّقَّةَ مرَّتين : في الحبِّ ، والولادة .

هل أكلِّف الوجود شيئاً كثيراً ؛ إذا أردتُ أن أكون كهذه اليمامة .

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها .

تقول اليمامة : إنَّ الوجودَ يُحبُّ أن يُرى بلونين في عين الأنثى .

كلُّ شيءٍ خاضعٌ لقانونه ؛ والأنثى لا تريد أن تخضع إلا لقانونها . . .

* * *

أيَّتُها اليمامة ! لم تعرفي الأميرَ ، وتركَ لكِ فسطاطَه !

هكذا الحظُّ : عدلٌ مضاعفٌ في ناحيةٍ ، وظلمٌ مضاعفٌ في ناحيةٍ أخرى .

أحمدي اللهَ أيَّتها اليمامة ! أنْ ليس عندكم لغاتٌ ، وأديان .

عندكم فقط : الحبُّ ، والطَّبيعة ، والحياة !

* * *

على فسطاط الأمير يمامةٌ جاثمةٌ تحضن بيضَها ،
يمامةٌ سعيدةٌ ، ستكون في التاريخ كهُدْهُد سليمان ،
نُسِبَ الهدهدُ إلى سليمان ، وستُنسب اليمامةُ إلى عمرو ،
واهاً لكَ يا عمرو ! ما ضرَّ لو عرفْتَ اليمامة الأخرى . . . !

* * *